٤٤ عمر بن الفارض سلطان العاشقين

فى هذه الصفحات القليلة ربما نستشعر معنى الزهد فى متاع الدنيا بما فيها من جاه وسلطان، فما الدنيا إلا متاع الغرور، ونستشعر أيضاً معنى قوة النفس عندما تقوى على النفس ذاتها فترفع عمّا يشينها ويخجلها، فلا فائدة لإنسان يخسر نفسه حتى ولو كسب العالم، ونستشعر فيها كذلك معنى الولاء للإنسان.. أى إنسان من أى عقيدة أو جنس أو لون.. فالكل أبناء آدم، وآدم من تراب..

هذه المعانى جميعها يمكن أن نلتقى بها عند الحديث عن هذا الرجل الصالح.. عمر بن الفارض.

وعمر بن الفارض أو سلطان العاشقين كما يحلو أن يلقبه دارسوه ومؤرخوه.. كان شاعراً صادق الحس، رقيق النفس، مرهف الشعور. وكان إلى جانب هذه الصفات التى اجتمعت لديه صوفياً من أصحاب الرياضات والمجاهدات الروحية، وكان مع هذا كله محباً، امتلأ قلبه بأعمق معانى الحب، وتعلقت جوانحه بأروع آيات الجمال، وكانت حياته الروحية مرآة صادقة انعكس على صفحاتها ما كان يحتدم فى باطنه من انفعالات عميقة، وما فاض به قلبه من عواطف شريفة، وما امتلأت به نفسه من أحاسيس صادقة.

ولم يكن محبوب الشاعر الصوفى عمر بن الفارض الذى تغنى بحبه، ورتل أنشودته ترتيلا طويلا، وسبح بجمال ذاته وصفاته تسبيحاً جميلا، لم يكن مخلوقاً من هذه المخلوقات، أو بشراً إنسياً أفاضت فى وصفه كتب الأدب والأطباء، وفاضت بتصوير صفاته القصائد الطوال أو القصار، وإنما كان حبه منصرفاً جملة وتفصيلا إلى الذات الإلهية.

لقد انتهى سلطان العاشقين عمر بن الفارض إلى أقصى ما ينتهى إليه محب إلهى فى حبه للذات الإلهية، فأعانه شعره على التعبير عن هذا الحب تعبيراً صادقاً رائعاً، هو أول ما يكون على شوقه ورقة مشاعره، وما لهذا الحب الإلهى من دوافع، وماله من منازع، وما عليه من معانٍ. . وما ينتهى إليه من نتائج روحية سامية.

هذا الشاعر الصوفى الذى اتخذ من هذا الحب الإلهى مصدر إلهام لأحاسيسه وأفكاره وتصوراته، حتى لقب بسلطان العاشقين. ولد بالقاهرة فى مصر سنة ست وسبعين وخمسمائة للهجرة. وعاش فى رعاية أبيه الذى كان يشغل منصباً كبيراً عند الملك العزيز. وما زال يرعى ابنه بالعلم والدرس صغيراً، وينشئه على التقوى والصلاح غلاماً يافعاً، حتى إذا صار فى عمر الشباب دفعه إلى الاشتغال بالفقه ثم حبب إليه أن يسلك طريق الصوفية، وأن يتزهد ويتجرد، وأن ينظر إلى الدنيا على أنها متاع الغرور.

حتى إن أغلب الدراسات التى عنيت بترجمة حياة هذا الشاعر الصوفى - وفى مقدمتها دراسة كل من الدكتور محمد مصطفى حلمى، والدكتور سعد عبد العزيز - ترجعان هذه الشفافية، والعلم الواسع، والورع المنقطع النظير، وغيرها من سمات تميز بها عمر بن الفارض إلى هذه النشأة الأولى التى وجهها هذا الوالد المثقف.

بل إن هناك من الدراسات التى تربط بين هذه النشأة وبين ما أخذ ابن الفارض به نفسه من شدة، حيث كان يمارس حياته الجديدة بالتوجه إلى جبل المقطم بالقاهرة والاستقرار فيه بوادى المستضعفين، حيث كان يخلو بنفسه خلوة تامة ويصوم فيها عن الطعام والشراب والكلام عدة أيام قد تبلغ العشرة، ثم يعود بعدها ليستأنف حياته العملية من جديد.

وعلى هذا النحو كانت رياضة ابن الفارض الروحية التى ظل يقوم بها بانتظام وعلى الدوام منذ الشباب.

وإذا كان لموطنه الصغير المتمثل فى بيته وأسرته دخل كبير فى نشأته، فإن لموطنه الكبير المتمثل فى مصر وعلمائها وفقهائها وما كان يجرى فيها وقتئذ من أحداث دخل أكبر وأهم.

لقد عاش هذا الشاعر الصوفى فى عصر كله قلق واضطراب، بسبب ما كان ينشب من حروب صليبية تسببت فى إجهاد مصر اقتصادياً على مدى سنوات طال، وقد كان لهذا أثره أيضاً على الحياة الفكرية فى ذلك الوقت، حيث اتخذت طابعاً دينياً يمتاز بنزعته الروحية الصوفية، وبالتالى صار التصوف نوعاً من السمو الروحى والطريق الذى يدفع الإنسان إلى التجرد من آثار العصبيات الدينية والطائفية، حيث أصبح لا مكان لهذه العصبيات بين أبناء الوطن الواحد الذى ينبغى أن تتضافر جهودهم فى مواجهة خطر يتهددهم جميعاً.

هذا إلى جانب أن روح هذا العصر بوجه عام قد انعكست على مذاهب الصوفية التى كانت سائدة وقتئذ فى غير مصر، ومنها مذهب وحدة الوجود الذى نادى به المفكر العربى المسلم محيى الدين بن عربى، ومنها أيضاً الحكمة الإشراقية التى نادى بها أيضاً السهروردى.. وكانت نظرة هذين المذهبين تفصح عن احترام الأديان الأخرى غير الإسلام، لأن الدين لله، وأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الجميع. وأن الغاية التى يسعى إلى تحقيقها. أى دين سماوى تتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، وفى ضوء ذلك التفسير استطاع المصريون أن يتفوقوا على ظروفهم، وأن يتخذوا من التصوف وسيلة لرياضة النفوس على التسامى، والتسامح والترفع عن الصغائر. والالتزام بالنظرة الواحدية للأديان.. ذلك أن الأديان إن اختلفت فى شعائرها وطقوسها وأشكالها. إلا أنها تتفق جميعا وأهدافها وغاياتها.

ويقرر الدكتور سعد عبد العزيز اتصال ابن الفارض بمحيى الدين بن عربى وتأثره بفلسفته التى تنادى بوحدة الوجود كما أخذ عن السهروردى حكمته فى الإشراق التى تقوم على نظرية الفيض الإلهى حيث يقول: «فعند ابن الفارض أن المتصوف يتحرق شوقاً إلى معرفة الحقيقة العليا، والنور الأسمى، وما يصدر عنه، فالشوق هنا إنما هو الدافع الذى يدفع المرء إلى الاتصال بخالقه. حتى يرى فى حواره مالاعين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر من مشاهدة النور الحق، والانغماس فى أمواجه، فإذا خلصت النفوس من كل ما يعلق بها من أدران وشوائب فإنه فى مقدورها أن تكشف كل ما يجرى وراء الحجب من خفايا وأسرار..»

وبهذا التفكير ذاع صيت سلطان العاشقين عمر بن الفارض فى العالم الإسلامى، وطبقت شهرته الآفاق كشاعر متصوف له نظر فلسفى، إلى درجة أن الملك الكامل كان ذات يوم يتجاذب أطراف الحديث مع نخبة من علماء وفقهاء وأدباء زمانه، فجرى بينهم على غير قصد ذكر عمر بن الفارض بهذه الكيفية التى شدت إليه انتباه العالم الإسلامى، وقد أخذ الحاضرون فى مجلس الملك يذكرون مآثره أمام الملك، سواء فى الشعر أو التصوف أو الفلسفة، ويذكرون أيضاً زهده فى الدنيا، وعزوفه عن مغرياتها، واختياره الاختلاء بنفسه بعيداً عن البشر، حتى يتمكن من مضاعفة التعبد صياماً وقياماً، وتطهيراً لنفسه من كل الأدران والشوائب حتى يتقرب إلى الله.

وينصت الملك الكامل مهتماً إلى كل هذا ليصيح قائلا: «مثل هذا الصالح العظيم يكون فى زمانى ولا أزوره. لابد لى من رؤيته وزيارته» وينهض متجهاً إلى الأزهر الشريف فى جماعة من أمرائه لهذا القصد.

ولم يكد ابن الفارض يحس بقدوم هذا الركب الملكى قاصداً زيارته، ويتأكد له هذا الأمر، بدخولهم من الباب الرئيسى للأزهر... حتى يتحاشى لقاءهم، ويخرج من باب آخر، ولا يبيت ليلته بالقاهرة، حيث يغادرها إلى الإسكندرية، رغبة منه فى عدم إتمام هذا اللقاء زاهداً فى كل ما ينتج عنه من مكاسب أو فوائد.

وفى الإسكندرية يعيش هذا الصوفى الجليل بجوار منارها عيشة الكفاف، حتى يستقر به المقام فى مسجد أقيم هناك عاكفاً على قراءاته وكتاباته وتعبده. ويقال إنه فى هذا المسجد الصغير كتب قصيدته المشهورة التى سماها «التائية الكبرى» وهى المتضمنة لطبيعة تصوفه وفلسفته ونظريته فى الحب الإلهى.

غير أن هذا الشاعر الصوفى لا يطيب له المقام طويلا بالإسكندرية بعد أن أصابته العلة وهو بعيد عن مسقط رأسه القاهرة، هذه العلة دفعته دفعاً إلى العودة إلى القاهرة التى لا يستطيع فراقها أكثر من ذلك، وفى ظروف حالته الصحية الأخيرة.

وبالفعل عاد إلى القاهرة، ولكن كان مريضاً، ويبدو أن العلة قد تمكنت منه إلى

درجة أنه ظل ملازماً للفراش، حتى إذا بلغ الملك الكامل نبأ مرضه، راح يستأذنه فى زيارته مع طبيبه الخاص، فلم يجد من ابن الفارض إلا الاعتذار والشكر.

لكن المرض يشتد وطأة، والملك يعود مرة ثانية طالباً الاستئذان له بالزيارة، فيشكره معتذراً، وهنا يجعل الملك مبعوثه يستأذن عمر بن الفارض فى إقامة ضريح له يلائم مقامه الجليل، فيشكر له هذا الكرم. وظل فى مكانه لا يبارحه حتى وافته منيته. فيدفن هناك تحت سفح المقطم، كغيره من أبناء الشعب الصالحين.

* * *

obeikandl.com